دلالة الإفراد والجمع في القرآن الكريم
دراسة تطبيقية على تفسير أبي السعود

إعداد
دكتور/ ميزر معدي العازمي
الموجه الفني بوزارة التربية
والمحاضر بكلية الشريعة بجامعة الكويت

دلالة الإفراد والجمع في القرآن الكريم

دراسة تطبيقية على تفسير أبي السعود

إعداد

دكتور/ ميزر معدي العازمي

الموجه الفني بوزارة التربية

والمحاضر بكلية الشريعة بجامعة الكويت

مقـــــدمة

الحمـد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين سـيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، **أما بعـد:**

إن مـن أسرار القرآن وروعة بيانه أنك كلما نهلت من فيضه ومعينه الصافي ازددت بـه تعلقـاً وتشبثاً، فهو مصباح الظلام، ومنهل البيان الذي وقف فحول العرب وفصحاؤهم أمامه عاجزين مشدوهين، وهم الذين طالما خاضوا معارك البلاغة والبيان وتـباروا فـي فنون القول وأسراره حتى أسروا القلوب والأذهان بسحر بيانهم وتبينهم، وقـد جـاء أسلوب القرآن الكريم في الغاية العظمى من البلاغة والفصاحة وخرج عن جمـيع وجـوه الـنظم المتعارف عليها في كلام العرب فتوافر العلماء على البحث في أسـراره واستخراج دُرره فمنهم من وقف على تفسيره، ومنهم من وقف على إعرابه، ومـنهم مـن اهتم بمعجزاته اللغوية والبلاغية التي زيّنت القرآن الكريم حتى قيل: "إن تحت كل حرف من حروف القرآن الكريم علم لا يعلمه إلا الله"(١).

وكـان الإفراد والجمع من بين هذه المعجزات اللغوية التي تَميّز بها كتاب الله، فلقـد بلغ بالقرآن الكريم الذروة في هذا الفن كما في غيره وذلك لغرض يقتضيه سياق الألفـاظ داخـل كل آية، لأن التغيير في الأسلوب يجدد نشاط السامع، ولما كان الإفراد

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (١/٩٠).

والجمع بهذه الأهمية، وجدنا الإمام أبو السعود في تفسيره الموسوم "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، قد عنى به عناية خاصة ووقوعاً على الفائدة الأصيلة، رأيت أن أتخيـر أمثلة تطبيقية للإفراد والجمع من خلال النظر في تفسير الإمام أبو السعود أبـين فيها طرفاً من اهتمام الإمام أبو السعود وعنايته بهذا الجانب العظيم من الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم، وقد أتبعت هذه المقدمة بترجمة مختصرة.

سبب اختيار البحث:

أهمـية القـرآن الكريم في الدراسات اللغوية والبلاغية، فهو الأصل الأول من أصول العربية لما فيه من جلال المعاني وجمال المباني، والوقوف على أساليب الإفراد والجمع متأملاً سر مجيئها مفردة أو مجموعة ومعرفة لطائفه فهو باب كثير الفوائد.

خطـة البحـث:

أمـا الخطـة التـي وضعتها فهي على النحو التالي: مقدمة وتمهيد وفصلان وخاتمة وفهرس.

المقدمـة: وتشمل الثناء على الله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم، وأسباب اختيار الموضوع، وخطة البحث.

التمهـيد: ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : دلالة الإفراد والجمع.

المبحث الثاني : منهج الدراسة التطبيقية.

المبحث الثالث : منهجي في البحث.

الفصل الأول: ترجمة الإمام أبي السعود.

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول : اسمه وكنيته ونسبه.

المبحث الثاني : مولده ونشأته.

المبحث الثالث : شيوخه وتلاميذه.

المبحث الرابع : علمه وآثاره العلمية و ثناء العلماء عليه.

المبحث الخامس: وفاته.

الفصل الثاني: الأمثلة التطبيقية من تفسير أبي السعود.

الخاتمـــــة وتشتمل على:

(أ) أهم نتائج البحث.

(ب) فهرس الموضوعات.

وأخيــراً.... فإنـــي لا أزعم أن هذا البحث قد خلا من كل عيب وسلم من كل نقــص لأنـــي أعتقد تمام الاعتقاد أنه مهما بالغت في تحريره وتهذيبه، لابد من وجود هفــوات وعثــرات ومآخذ تثير الانتقاد على حد قول المزني:(لو عورض كتاب سبعين مــرة لوجد فيه خطأ أبى الله أن يكون كتاباً صحيحاً غير كتابه)، فالكمال لله وحده، ولا عــصمة إلا لأنبيائه ورسله بالوحي وما كان في هذا البحث من صواب فهو بتوفيق الله وتسديده وفضله ورحمته وما كان فيه من خطأ فهو مني.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التمهـــيد

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول

دلالة الإفراد والجمع

عـــندما يمعن الباحث النظر في آيات القرآن الكريم وألفاظه يجد أن من وسائل القـــرآن الكـــريم فـــي اختـــياره ما يحقق التناسب الصوتي، والانسجام التأليفي للآيات القـــرآنية؛ اعتماده توظيف بعض الكلمات في صورتها المفردة في سياقات، ثم توظيفها مـــرة أخـــرى فـــي صورتها الجمعية في سياقات أخرى، وما ذاك إلا مراعاة للتلوين الـــصوتي لهذه الكلمات، وقصداً لما يراد من وراء هذا التلوين من توابع دلالية وجمالية مـــوظفة في هذه السياقات. فالنص القرآني لم يستعمل بعض الألفاظ إلا مجموعة دوماً، فـــإذا احـــتاج إلـــى توظيف مفرد اللفظة المجموعة عدل عن هذا المفرد إلى استعمال المرادف. وفي ذلك من المعاني والأسرار البلاغية من خلال السياق ما لا يخفي.

وقـــد تـــتابع العلمـــاء في كل جيل للكشف عن إعجازه ودقيق بيانه، وقد وقف الإمام أبو السعود عند كثير من الكلمات متأملاً سر مجيئها مفردة أو مجموعة وبين أن وراء كل منها أغراضاً عظيمة.

الإفراد والجمع لغة واصطلاحاً:

- الإفـــــراد:

وَالْفَـــرْدُ: الَّـــذِي لا نَظِيرَ لَهُ، وَالْجَمْعُ أَفراد. يُقَالُ: شَيْءٌ فَرْدٌ وفَرَدٌ وفَرِدٌ وفُرُدٌ وفارِدٌ. والمُفْرَدُ: ثورُ الوَحْشِ؛ وَفِي قَصِيدَةِ كَعْبٍ:

تَرْمِي الغُيوبَ بِعَيْنَيْ مُفْرَدٍ لَهِقٍ

الْمُفْـــرَدُ: ثَـــوْرُ الْوَحْشِ شبَّه بِهِ النَّاقَةَ. وثَوْرٌ فُرُدٌ وفارِدٌ وفَرَدٌ وفَرِدٌ وفَرِيد، كُلُّهُ بِمَعْنًى مُنْفَرِدٍ. وسِدْرَةٌ فارِدَةٌ: انْفَرَدَتْ عَنْ سَائِرِ السِّدْرِ[1].

---

(١) لسان العرب فصل الفاء ٣/٣٣١، القاموس المحيط فصل ١/٣٠٥- ٣٠٦ باب الدال فصل الفاء ص٣٩٠، أساس البلاغة كتاب الفاء مادة (فرد) ٣٣٧.

- **الجمـــع:**

ج م ع

مـــا جاءني إلا جميعة منهم، وكنت في مجمع من الناس. وهذا الكلام أولج في المـــسامع، وأجول في المجامع. ومعه جمع غير جماع وهم الأشابة. قال أبو قيس ابن الأسلت[1]:

ثم تجلت ولنا غاية ... من بين جمع غير جماع

(١) أساس البلاغة كتاب الجيم مادة (جمع) ص٦٤.

المبحث الثاني

منهج الدراسة التطبيقية

- تعريف المنهج لغةً:

المنهج من مادة (نهج) الدالة على الطريق الواضح البين.

قال ابن منظور[١] في اللسان: "نهْج طريق نهْج: بيّن واضح..... والجمع نهجات، ونهج ونهوج"[٢]

والمنهاج: الطريق الواضح، واستنهج الطريق: صار نهجاً، ونهجت الطريق: أبنته وأوضحته، يقال: "اعمل على ما نهجته لك".

وفي المعجم الوجيز: "(نهج) الطريقُ – نهجاً: وضح واستبان، ويقال نهج الطريق: بيَّنه وسكله، ويقال نَهَجَ – نَهْج فلان: سلك مسلكه.

(انتهج) الطريق: استبانه وسلكه، (استنهج) سبيل فلان: سلك مسلكه، (المنهاج): الطريق الواضح والخُطَّة المرسومة، ومنه: منهاج الدارسة ومنهاج التعليم ونحوهما، (ج) مناهج، (المنهج): المنهاج، (ج) مناهج.

(النهج): الطريق المستقيم الواضح، (ج) نهوج"[٣].

من هذا يتضح أن المنهج لغة: هو الطريق الواضح والخطة المرسومة.

والمنهاج: كالمنهج، وفي التنزيل قول الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٤].

قال الإمام ابن جرير رحمه الله تعالى: "وأما المنهاج فإن أصله: الطريق البين الواضح..... ثم يستعمل في كل شيء كان بيناً واضحاً سهلاً.

---

(١) محمد بن مكرم علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الأفريقي صاحب لسان العرب، الإمام اللغوي الحجة – توفي سنة ٧١١ هـ.
انظر: الأعلام للزركلي ١٠٨/٧ – ومعجم المؤلفين ٤٦/١٢.

(٢) انظر: لسان العرب مادة نهج ٣٨٣/٢.

(٣) انظر: المعجم الوجيز – مادة نهج، مصدر النون صـ: ٦٣٦.

(٤) سورة المائدة آية ٤٨.

فمعنى الكلام..... لكل قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحق يؤمه، وسبيلاً واضحاً يعمل به"[١].

وقال الإمام ابن كثير[٢] رحمه الله: "..... أما المنهاج: فهو الطريق الواضح السهل، والسنن الطرائق"[٣].

وقال الحافظ بن حجر[٤] رحمه الله: "والمنهاج: السبيل، أي: الطريق الواضح"[٥].

- المنهج اصطلاحاً:

(مجموعة من القواعد العامة المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم)[٦].

ويقول محمد بن صامل السلم: (وكان العلماء المسلمون يعبرون عن المنهج بالأصول والقواعد ولذا وضعوا أصولاً وضوابط للبحث في مختلف العلوم مثل: أصول الحديث، أصول التفسير، أصول الفقه)[٧].

تعريف الدراسة التطبيقية:

(هي الدراسات التي تسعى لإبراز مواطن الوفاق أو الخلاف بين قضيتين، أو قضايا في موضوع واحد مع تفسير ذلك وتعليله)[٨].

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٦٠٩/٤.

(٢) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، الإمام، المفسر، المحدث، المؤرخ، الفقيه، من مصنفاته – تفسير القرآن العظيم، البداية والنهاية – توفي سنة ٧٧٤ هـ.
انظر: شذرات الذهب ٢٣١/٦ – ومعجم المؤلفين ٣٨٣/٢.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٦٦/٢.

(٤) أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي المشهور بابن حجر العسقلاني – الإمام: العلامة، الحافظ الفقيه،من مصنفاته:فتح الباري شرح صحيح البخاري،لسان الميزان-توفي سنة٨٥٢ هـ.

(٥) انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٤٦/١.

(٦) انظر: المنطق ومناهج البحث، أ. د/ محمد الشرقاوي ص١٣٢.

(٧) منهج كتابه التاريخ الإسلامي لمحمد بن صامل السلمي ص٨٩.

(٨) انظر: أبجديات البحث في العلوم الشرعية أ. د/ فريد الأنصاري ص١٩٢.

ومـــن ثـــم فالدراسة التطبيقية هي تطبيق منهج من مناهج البحث العلمي على موضوع ما ثم رصد النتائج لتحليل نصوصها والحكم عليها.

المبحث الثالث

منهجي في البحث

ويتلخص منهج البحث في النقاط التالية:

(١) تخيرت أمثلة من الإفراد والجمع خلال النظر في تفسير أبي السعود.

(٢) بينت الأسرار البلاغية للأمثلة المختارة.

(٣) عند ورود الآيات القرآنية قمت ببيان اسم السورة ورقم الآية في الهامش.

(٤) قمت بتخريج الأحاديث من مصادرها الأصلية أو مظانها.

(٥) عــزوت الأقوال إلى قائليها وأشرت إلى المراجع في الهامش مبيناً اسم الكتاب ومــؤلفه والجــزء والصفحة وقد أُثبت اسم الطبعة في فهرس المراجع الملحق بالبحث.

(٦) كــل كلام موضوع بين علامتي تنصيص فهو منقول بنصه، وإذا تصرفت في حــروف يسيرة منه أشرت إلى ذلك في الهامش، عقب الإحالة بلفظ (بتصرف)، أمــا إذا كــان الكــلام مــنقولاً بمعناه أو بتصرف كثير لم أضعه بين علامتي تنصيص، ثم صدرت الإحالة بلفظ (انظر).

(٧) قمت بعمل خاتمة وهي تشتمل على:

(أ) أهم نتائج البحث.

(ب) فهرس الموضوعات.

الفصل الأول

ترجمة الإمام أبو السعود

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول

اسمه وكنيته ونسبه

هو أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي[١].

المبحث الثاني

مولده ونشـــأته

- مـــــولده:

ولـــد الإمـــام أبو السعود في سنة ٨٩٨ هـــ بقرية قريبة من القسطنطينية من خـــواص أوقـــاف الـــزاوية التي بناها السلطان بايزيد خان للشيخ محي الدين والد أبي السعود[٢].

- نشـــــأته:

لقـــد أحاطت بالعلاّمة أبي السعود ظروف أهلته لأن يكون الذي كان، فقد تربى فـــي أســـرة مـــشهورة بـــالعلم والتقى والورع، فوالده هو الشيخ محي الدين محمد ابن مـــصطفى الاســـكليبي الذي جمع بين رياستي العلم والعمل وأحبه السلطان بايزيد خان حتى اشتهر بين الناس بشيخ السلطان[٣].

وأمـــا والدتـــه فهي سليلة بيت علم وفضل، فهي بنت أخي العلاّمة علاء الدين على القوشجي الذي برع في شتى العلوم وكانت له باع طويلة في العلوم الرياضية وله مصنفات عديدة في فروع العلم المختلفة[٤].

---

(١) انظـــر: العقـــد المنظوم، لطاش كبرى زادة، ص٤٤٠، وانظر: معجم المؤلفين ـــ لعمر كحاله (٣٠١/١١).

(٢) انظر: العقد المنظوم ص٤٤٠، وانظر: الأعلام للزركلي (٥٩/٧).

(٣) انظر: الشقائق النعمانية (٢٨٣/١).

(٤) انظر: الشقائق النعمانية (١٧٧/١).

ومن هنا ندرك سر نبوغ الإمام أبي السعود فنشأته في هذه البيئة الزاخرة بالعلم والفضل كان لها أكبر الأثر في تربيته.

قال صاحب العقد المنظوم: (وقد مهد له في مهده الصواب، وسخر له أبيات الخطاب، وتربى في حجر العلم حتى ربا، وارتضع ثدي العلم إلى أن ترعرع وحبا ولا زال يخدم العلوم الشريفة حتى رحب باعه، وامتد ساعده واشتد اتساعه)[١].

المبحث الثالث

شيوخه وتلاميذه

- **شيوخه:**

مما لا شك فيه أن من الروافد التي تسهم في تكوين علم الرجل وثقافته الشيوخ فهم القدوة العلمية له، فلقد فتح الإمام أبو السعود عينيه على جهابذة الفكر والأدب فنهل من ينابيعهم وقطف من بساتينهم وكان أعظمهم أثراً فيه والده، فبعد أن ختم القرآن الكريم ابتدأ في طلب العلم فقرأ الأجرومية ومقدمات العربية على والده.

(١) **العارف بالله تعالى الشيخ/ محي الدين محمد الإسكليبي:**

برع في العلوم وتضلع من المنطوق والمفهوم وكان من كبار رجالات الصوفية وجمع بين رياستي العلم والعمل توفي رحمه الله تعالى في سنة ٩٢٠هـ[٢].

قرأ عليه الإمام أبو السعود كثيراً من أمهات الكتب ولذا نجده يقول "قرأت على والدي الشيخ/ محي الدين حاشية التجريد للشريف الجرجاني[٣] من أول الكتاب إلى آخره مع جميع الحواشي المنقولة عنه وقد قرأت عليه شرح المفتاح للعلامة المسفور مرتين وشرح المواقف له أيضاً[٤].

---

(١) انظر: العقد المنظوم (٢/٢٨٣).

(٢) انظر: شذرات الذهب (٤/٤٠١)، وانظر: الفوائد البهية (٣٣٥)

(٣) علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني، فيلسوف من كبار العلماء بالعربية ولد بجرجان سنة ٧٤٠ هـ، ودرس في شيراز له مصنفات كثيرة منها حاشية على تفسير البيضاوي، التعريفات، شرح مواقف الإيجي، الكبرى والصغرى في المنطق، توفى في شيراز سنة ٨١٦ هـ، انظر: معجم المؤلفين (٧/٢١٦)، وانظر: الأعلام للزركلي (٥/٧).

(٤) انظر: الشقائق النعمانية (١/٤٤٠)

(٢) ابن المؤيد:

العـــالم الفاضل الكامل المولى عبدالرحمن بن علي المؤيد الأماسي كان بارعاً فـــي الفـــنون الأدبية وشيخاً في العلوم العربية وماهراً في التفسير والحديث وكان مهيباً عظـــيم الـــشأن ماهـــراً فـــي الـــبلاغة والبيان ولد في سنة ٨٦٠ هـــ وتوفى في سنة ٩٢٢ هـــ[١].

(٣) ابن قطب الدين:

هـــو محي الدين محمد بن محمد الحنفي أحد موالي الروم المعروف بابن قطب الـــدين ترقى في التدريسي إلى أن ولى قضاء حلب، ثم بروسا، ثم إسلام بول، ثم قضاء العساكر الأناضولية وكان عالماً فاضلاً صالحاً ورعاً محباً للصوفية سالكاً طريقهم توفى رحمه الله تعالى في سنة ٩٥٧ هـــ[٢].

(٤) القوشجي:

علـــي بـــن محمد القوشجي الحنفي علاء الدين عالم مشارك في أنواع العلوم، ومن تصانيفه مسرة القلوب في دفع الكروب في علم الهيئة، تفسير البقرة وآل عمران، عنقود الزواهر في الصرف، توفى رحمه الله تعالى في سنة ٨٧٩هـــ[٣].

(٥) ابن المعلول:

محـــي الـــدين محمد بن عبد القادر، كان رحمه الله عالماً فاضلاً صالحاً محققاً مـــدققاً عالمـــاً بالعلـــوم الـــشرعية والعقلـــية، تولـــى قضاء مصر، ثم قضاء العساكر الأناضولية، توفى رحمه الله في سنة ٩٦٣ هـــ[٤].

---

(١) انظـــر: الـــشقائق النعمانية (١٧٦/١)، وانظر: شذرات الذهب (١٠٩/٤)، وانظر: الكواكب السائر بأعيان المائة العاشرة (٢٣٢/١).

(٢) انظر: شذرات الذهب (٣٢٠/٤)، وانظر: الكواكب السائرة (١٩/٢).

(٣) انظر:البدر الطالع(٤٩٥/١)، وانظر: معجم المؤلفين(٢١٦/٧)،وانظر: الأعلام للزركلي(٩/٥).

(٤) انظر: الشقائق النعمانية (٢٨٩/١)، وشذرات الذهب (٣٣٩/٤).

(٦) العالم الفاضل الكامل سنان الدين يوسف:

كان كثير الاشتغال بالعلم الشريف شهد بفضله الخاص والعام واعترفوا برسوخ قدمه في الفنون، له حاشية على تفسير البيضاوي من أوله إلى آخره توفي رحمه الله في سنة ٨٩١ هـ[١].

(٧) سعدي جلبي:

المولى سعد الدين عيسى بن أميرخان الحنفي المعروف بسعدي جلبي، الإمام الفاضل العامل العلاّمة أحد موالي الروم المشهورين بالعلم والدين والرياسة عمل بالتدريس، ثم بالقضاء، ثم بالإفتاء، له رسائل وتعليقات وكتب وحواشي مفيدة على تفسير البيضاوي، وله شرح مختصر للهداية، توفى رحمه الله سنة ٩٤٥ هـ[٢].

- تلاميذه:

(١) شيح زاده:

المولى عبد الرحمن بن جمال الدين الحنفي الأمام العلاّمة اهتم في تحصيل المعارف غاية الاهتمام، فمهر في العلوم العربية والفنون الأدبية فكان من أجلة العلماء وأكابر الفضلاء، وقد أجاز له الإمام أبو السعود حيث قال "أجزت له في مطالعة الكتب الفاخرة واحتياض المعالم الزاخرة... الخ" توفى رحمه الله تعالى في سنة ٩٧١هـ[٣].

(٢) السعودي:

المولى محمد بن حسن الشريف الحسيب المعروف بالسعودي أخذ هو وأخوه المعروف بالجنابي عن المولى أبي السعود وكان السعودي إماماً محققاً مدققاً توفى في سنة ٩٩٩هـ[٤].

---

(١) انظر: طبقات المفسرين للأدنروي (٣٥٢/١) ، وانظر: الشقائق النعمانية (١٦٧/١)، وانظر: الفوائد البهية (٥٧٠)

(٢) انظر: الشقائق النعمانية (٢٦٥/١)، وانظر: شذرات الذهب (١٢٦٢/٤)، وانظر: الفوائد البهية (١٣٥).

(٣) انظر: شذرات الذهب (٣٦٠/٤)، وانظر: الشقائق النعمانية (٣٦٢/١).

(٤) انظر: شذرات الذهب (٤٤٠/٤)، وانظر: الكواكب السائرة (٥٥/٣).

المبحث الرابع

علمه وآثاره العلمية وثناء العلماء عليه

- **علمـــــه:**

إن الإمـــام أبـــا الـــسعود الذي فتح عينيه على جهابذة الفكر والأدب فنهل من ينابيعهم وقطف من بساتينهم، وعرف في مقاعد الدرس شوارد اللغة وأسرار الشريعة، وفقـــه الحياة حتى تضلَّع من العلم والعمل، لم يشغله التدريس والقضاء والإفتاء عن أن يختلس بعض الوقت للكتابة والتأليف.

قـــال صاحب العقد المنظوم: (وقد عاقه الدرس والفتوى والاشتغال بما هو أهم وأقوى عن التفرغ للتصنيف)[1].

- **آثاره العلمية:**

ومن مؤلفاته التي ذكرها أصحاب التراجم:

(١) إرشاد العقل السليم.

(٢) بضاعة القاضي في الصكوك.

(٣) بعض الحواشي على تفسير الكشاف.

(٤) تحفه الطلاب في المناظرة.

(٥) تهافت الأمجاد في فروع الفقه الحنفي.

(٦) ثواقب الأنظار في أوائل منار الأنوار.

(٧) رسالة في المسح على الخفين.

(٨) رسالة في مسائل الوقوف، وأخرى في تسجيل الأوقاف.

(٩) غلطات العوام.

(١٠) غمرات المليح في أول مباحث قصد العام من التلويح.

(١١) الفتاوى.

(١٢) قصة هارون وماروت.

(١٣) قانون المعاملات.

---

(١) انظر: العقد المنظوم (٢٨٩/٢).

(١٤) ميمية قصيدة مشهورة.

(١٥) معاقد الطراز.

(١٦) موقف العقول في وقف المنقول.

(١٧) نهاية الأمجاد على كتاب الجهاد على الهداية للمرغياني[١].

- **مكانته العلمية وثناء العلماء عليه:**

لقد برع الإمام أبو السعود في شتى العلوم وحاز قصب السبق بين أقرانه فلم يقدر أحد أن يحاربه في ميدانه، وارتقى أعلى المراتب العلمية، وتقلد أرقى المناصب العثمانية.

قال عنه صاحب العقد المنظوم: (كان الإمام أبو السعود من الذين قعدوا من الفضائل والمعارف على سنامها وغاربها، وضربت له نوبة الامتياز في مشارق الأرض ومغاربها، تفرد في ميدان فضله فلم يجاره أحد، ولو تكلم في نقل الجبال الراسيات والأطواد الشامخات لأبَّر كلامه، ولو قصد إلى راحلة الدهر لألقت لديه زمامه)[٢].

وقال عنه صاحب الفوائد البهية: (الإمام أبو السعود شيخ كبير وعالم نحرير لا في العجم له مثيل ولا في العرب له نظير، انتهت له رياسة الحنفية في زمانه وبقى مدة العمر في الجلالة وعلو الشأن، وكان يجتهد في بعض المسائل ويخرج ويرجع بعض الدلائل، وله في الأصول والفروق قوة كاملة وقدرة شاملة وفضيلة تامة وإحاطة عامة)[٣].

وقال عنه صاحب الكواكب السائرة (الإمام العلاّمة المحقق المدقق الفهامة، العلم الراسخ، والطود الشامخ مفتي التخت السلطاني، أعظم موالي الروم وأفضلهم لم يكن له نظير في زمانه في العلم والرئاسة والديانة)[٤].

---

(١) انظر: المرجع السابق (٢٩٠/٧). وانظر: معجم المؤلفين (٣٠٢/١١) وانظر: التفسير والمفسرون للذهبي (٣٤٦/١)

(٢) انظر: العقد المنظوم (٤٤٠/١)

(٣) انظر: الفوائد البهية (٨١)

(٤) انظر: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة (٣٥/٣).

المبحث الخامس

وفـــــاته

إن أيـــام الحياة معدودة وهي ستنقضي مهما طال أمدها فبعد أن مكث العلاّمة أبـــو الـــسعود فـــي منـــصب الإفتاء ومشيخة الإسلام قرابة الثلاثين عاماً وافته المنية بالقسطنطينية في جمادي الأولى سنه اثنتين وثمانين وتسعمائة[١].

قـــال صـــاحب العقـــد المـــنظوم (ظـــل أبو السعود في منصب الإفتاء مكرماً مهابـــاً، يفـــتح أقفـــال المشكلات ويسهّل طرق المعضلات، ويجيب على الأسئلة السداد بأجـــوبة حـــسان، إلـــى أن دعى من جنان ربه إلى رياض الجنان وكان ذلك في أوائل جمادي الأولى من شهور سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة)[٢].

وقـــد حضر جنازته العلماء والوزراء وسائر أرباب الديوان وخلق لا يحصون كثـــرة وصلى عليها المولى سنان[٣] في جامع السلطان محمد خان وذهبوا به إلى جوار مرقد أبي أيوب الأنصاري[٤] ﷺ وهم يبالغون في ثنائه ودفنوه في حظيرة أعدها لنفسه وأبنائه[٥].

---

(١) انظـــر: الكـــواكب الـــسائرة بأعيان المائة العاشرة (٣٦/٣)، وانظر: شذرات الذهب (٣٩٨/٨)، وانظر: الأعلام للزركلي (٥٩/٧)، وانظر: معجم المؤلفين (٣٠١/١١).

(٢) انظر: العقد المنظوم (١٨٨).

(٣) يوســـف (ســـنان الدين) بن عبدالله (حسام الدين) بن الياس الأماسي الرومي المعروف بالمولى وبالواعظ ســـنان: قـــاض ومفـــسر من فقهاء الحنفية عمل بالتدريس ثم بالقضاء، له كتب منها: حاشية على تفسير البيـــضاوي ــ تبيـــين المحـــارم ــ تنبـــيه الغبي في رؤية النبي ــ تضليل التأويل، توفى باستنبول سنة ٨٩٦ هـــ، انظر: الأعلام للزركلي (٢٤١/٨).

(٤) هو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبه بن عبد بن عوف بن غنم بن مالك ابن النجار شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وتوفى بالقسطنطينية من أرض الروم سنة خمسين وقيل إحدى وخمـــسين في خلافه معاوية تحت راية يزيد. انظر: أسد الغابة لابن الأثير (٨٥/٢)، وانظر: الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر (٢٣٤/٢).

(٥) انظر: العقد المنظوم (٢٨٨/٢).

الفصل الثاني

الأمثلة التطبيقية من إرشاد العقل السليم

- عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

قال أبو السعود رحمه الله: قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وجُمع الضمائرُ الثَّلاثةِ باعتبارِ معنى الموصول كما أن إفرادَ ما في الصلة باعتبار لفظه(٢).

وقال الألوسي رحمه الله: وقد حملت الضمائر الثلاثة باعتبار معنى الموصول، كما أن إفراد ما في الصلة باعتبار لفظه، وفي البحر: إن هذين الحملين لا يتمان إلا بإعراب مَنْ مبتدأ، وأما على إعرابها بدلا فليس فيها إلا حمل على اللفظ فقط(٣).

- وعند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٤).

قال أبو السعود رحمه الله: والإفرادُ في كان باعتبار لفظ مَنْ والجمعُ في خبره باعتبار معناه وقرئ إلا من كان يهودياً أو نصرانياً(٥).

- وعند قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٦).

قال أبو السعود رحمه الله: ﴿مِنَ الظلمات.... إِلَى النور﴾ وإفراد النور لوحدة الحق كما أن جمعَ الظلمات لتعدد فنون الضلال(٧).

---

(١) سورة البقرة: ٦٢.

(٢) انظر: إرشاد العقل لأبي السعود ١٠٨/١ بتصرف.

(٣) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٨٢/١.

(٤) سورة البقرة: ١١١.

(٥) انظر: إرشاد العقل لأبي السعود ١٤٧/١.

(٦) سورة البقرة: ٢٥٧.

(٧) انظر: إرشاد العقل لأبي السعود ١/ ٢٥٠.

– وعند قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١).

قال أبو السعود رحمه الله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارةٌ إلى مَنْ والجمع باعتبارِ المَعْنى كَما أنَّ الإفراد في تولى باعتبار اللفظ وما فيه من معنى البعد للدلالة على تَرامي أمرهم في السوء وبُعد منزلتهم في الشر والفساد أي فأولئك المُتولُّون المتّصفون بالصفات القبيحة(٢).

وأرى أن ما ذكره الإمام محل مناقشة، فـ "مَنْ" من الموصولات العامة أي: أنها موضوعة للمفرد وللمثنى، وللجمع مذكراً أو مؤنثاً بمعنى: أنها قد تستعمل في المفرد المذكر وحينئذ يكون لفظها ومعناها للإفراد والتذكير.

وقد تستعمل في المفرد المؤنث وعليه يكون اللفظ والمعنى للإفراد والتأنيث، وقد تستعمل للمثنى المذكر وبناء عليه يكون لفظها ومعناها للتثنية والتذكير، وقد تستعمل للمثنى المؤنث ومن هذا المنطلق يكون لفظها ومعناها للتثنية والتأنيث، وقد تستعمل للجمع المذكر وفي هذه الحالة يكون لفظها ومعناها للجمع والتذكير وقد تستعمل للجمع المؤنث وفي هذه الحالة يكون لفظها ومعناها للجمع والتأنيث ومن هذا المنطلق: فإن لفظها ومعناها يكون متحداً ولا يكون هناك اختلاف بين اللفظ والمعنى إذا استعملت في أي نوع من هذه الأنواع، وحيث قد ثبت ذلك فبناء عليه يكون قول أبي السعود: (إن إفراد الضمير مراعاة للفظ "مَنْ" وجمعه مراعاة لمعناها مخالف للقاعدة التي ذكرناها لأنه في هذه قد اختلف لفظ "مَنْ" مع معناها وهذا لا يصح.

ولنا أن نعلل للإفراد أن المراد به الجنس الشامل، وبهذا يتفق من حيث المعنى مع الجمع، وبهذا يكون المراد من "مَنْ" سواء اعتبرت موصولة أو شرطية الجمع والعموم في اللفظ والمعنى، ويكون التعبير بالجمع في ضمير الجمع بعد التعبير بالمفرد لبيان أن المقصود بهذا الضمير المفرد العموم والجمع من بيان البيان بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال.

---

(١) سورة آل عمران: ٨٢

(٢) انظر: تفسير الإرشاد ٢/٥٤.

- وعند قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(١).

قال أبو السعود رحمه الله: قوله تعالى: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يُخبرَ عن نفسه وَمَنْ مَعَهُ من المؤمنينَ بالإيمان بما ذُكر وجمعُ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهو القرآنُ لما أنه منزلٌ عليهم أيضاً بتوسط تبليغه إليهم أو لأن المنسوبَ إلى واحد من الجماعة قد يُنسَب إلى الكل أو عن نفسه فقط وهو الأنسبُ بما بعده والجمعُ لإظهار جلالة قدره عليه السلام ورفعة محلِّه بأمره بأن يتكلَّم عن نفسه على دَيْدَن الملوك ويجوز أن يكون الأمرُ عاماً والإفرادُ لتشريفه عليه السلام والإيذانِ بأنه عليه السلام أصلٌ في ذلك كما في قوله تعالى يأَيُّهَا النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء(٢).

- وعند قوله تعالى: ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٣).

قال أبو السعود رحمه الله: ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلةِ والجمعُ باعتبارِ معناه كما أن الإفراد في الصلة باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للإيذانِ ببُعد منزلتهم في الضلال والطُغيان أي فأولئك المُصرُّون على الافتراء بعد ما ظهرت حقيقةُ الحال وضاقت عليهم حَلْبةُ المُحاجَّة والجدال(٤).

ولنا أن نعلل الإفراد في الصلة كما ذكرنا قبل ذلك بأن "مَنْ" قد تستعمل للجمع المذكر وفي هذه الحالة يكون لفظها ومعناها للجمع والتذكير وبناء عليه فإن الإفراد في الصلة وإن كان في اللفظ مفرداً إلا أن المراد به الجنس الشامل لكل من افترى، وبهذا يتفق هذا الضمير من حيث المعنى مع ضمير الجمع في قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

---

(١) سورة آل عمران: ٨٤

(٢) انظر: الإرشاد ٢/٥٤.

(٣) سورة آل عمران: ٩٤.

(٤) انظر: الإرشاد ٢/٥٩.

وبهذا يكون المراد من "مَن" الجمع والعموم في اللفظ والمعنى.

– وعند قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾(١).

قال أبو السعود رحمه الله: تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله على أبلغِ وجهٍ وآكدِه فإن تنكيرَ الظلم وتوجيهَ النفي إلى إرادته بصيغة المضارعِ دون نفسه وتعليقَ الحكمِ بآحاد الجمع المعرف والالتفاتُ إلى الاسم الجليل إشعارا بعلة الحكم بيان لكمال نزاهته عز وجل عن الظلم بما لا مزيدَ عليه أي ما يريد فرداً من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين في وقتٍ من الأوقاتِ فضلاً عن أن يظلِمَهم فإن المضارعَ كما يفيد الاستمرارَ في الإثبات يفيده في النَّفي بحسبِ المقامِ كما أن الجملةَ الاسمية تدل بمعونة المقام على دوام الثبوتِ وعند دخولِ حرفِ النفي تدل على دوام الانتفاءِ لا على انتفاء الدوامِ وفي سبك الجملةِ نوعُ إيماءٍ إلى التعريض بأن الكفرةَ هم الظالمون ظلَموا أنفسَهم بتعريضها للعذاب الخالد كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئًا ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢).

– وعند قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾(٣).

قال أبو السعود رحمه الله: غايةٌ لما يفيده النفيُ المذكورُ كأنَّه قيلَ ما يتركهم الله تعالى على ذلك الاختلاطِ بل يقدِّر الأمورَ ويرتب الأسبابَ حتى يعزلَ المنافقَ من المؤمن وفي التعبير عنهما بما ورد به النظمُ الكريمُ تسجيلٌ على كلَ منهما بما يليق به وإشعارٌ بعلة الحُكمِ وإفرادُ الخبيث والطيب مع تعدد ما أريد بكل منهما وتكثره لا سيما بعد ذكرِ ما أريد بأحدهما أعني المؤمنين بصيغة الجمعِ للإيذان بأن مدارَ إفرازِ أحدِ الفريقين من الآخر هو اتصافُهما بوصفهما لا خصوصيةُ ذاتهما وتعددُ آحادهما كما في مثلِ قوله تعالى ﴿ذلك أدنى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾ ونظيره قولُه تعالى ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٩.

(٢) انظر: الإرشاد ٢/٧٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٧٩.

أَرْضَعَتْ﴾ حيث قصد الدلالة على الاتصاف بالوصف من غير تعرض لكون الموصوف من العقلاء أو غيرهم وتعليقُ المَيْزِ بالخبيث المعبَّرِ به عن المنافق[1].

- وعند قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

قال أبو السعود رحمه الله: عند قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ﴾ في جميع الأوامرِ والنواهي التي من جملتها ما فصل ههنا وإظهار الاسم الجليل لما ذكر آنفاً...

﴿خالدين فيها﴾ صيغةُ الجمعِ بالنظر إلى جمعية مَنْ بحسب المعنى كما أنَّ إفرادَ الضميرِ بالنظر إلى إفراده لفظاً[3].

- وعند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[4].

قال أبو السعود رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ﴾ ولو في بعض الأوامرِ والنواهي ﴿خَالِداً فِيهَا﴾... ولعل إيثارَ الإفراد ههنا نظراً إلى ظاهر اللفظِ واختيارُ الجمعِ هناك نظراً إلى المعنى للإيذان بأن الخلودَ في دار الثوابِ بصفة الاجتماعِ أجلبُ للأنس كما أن الخلودَ في دار العذاب بصفة الانفرادِ أشدُّ في استجلاب الوحشة[5].

قال الألوسي رحمه الله:... وأفرد هنا وجمع هناك لأن أهل الطاعة أهل الشفاعة. وإذا شفع أحدهم في غيره دخلها معه، وأهل المعاصي لا يشفعون فلا يدخل بهم غيرهم فيبقون فرادى[6].

---

(١) انظر: الإرشاد ١١٩/٢

(٢) سورة النساء: ١٣

(٣) انظر: الإرشاد ١٥٤/٢.

(٤) سورة النساء: ١٤.

(٥) انظر: الإرشاد ١٥٤/٢.

(٦) انظر روح المعاني ٤٤٣/٢.

– وعند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(١).

قال أبو السعود رحمه الله:... كلامٌ مستأنفٌ فيه فضلُ ترغيبٍ في الطاعة ومزيدُ تشويقٍ إليها ببيان أن نتيجتَها أقصى ما يَنتهي إليه هممُ الأممِ وأرفعُ ما يمتدُّ إليه أعناقُ عزائمِهم من مجاورة أعظمِ الخلائقِ مقداراً وأرفعهم مناراً متضمِّنٌ لتفسير ما أُبهم في جواب الشرطيةِ السابقةِ وتفصيلِ ما أجمل فيه والمرادُ بالطاعة هو الانقيادُ التامُّ والامتثالُ الكاملُ لجميع الأوامرِ والنواهي.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المطيعين والجمعُ باعتبار معنى مَنْ كما أن الإفرادَ في فعلِ الشرطِ باعتبار لفظِها وما فيه من معنى البعد مع القُرب في الذكر للإيذان بعلوّ درجتِهم وبُعد منزلتِهم في الشرف.

﴿مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم﴾ والجملةُ جوابُ الشرطِ وتركُ ذكرِ المنعَمِ به للإشعار بقصور العبارةِ عن تفصيله وبيانه... (٢).

قال الألوسي رحمه الله:... وَمَنْ شرطية وإفراد ضمير يُطِعِ مراعاة للفظ، والجمع في قوله سبحانه ﴿فَأُولَئِكَ﴾ مراعاة للمعنى أي فالمطيعون الذين علت درجتهم وبعدت منزلتهم شرفا وفضلا.

﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بما تقصر العبارة عن تفصيله وبيانه(٣).

وقال أبو إسحاق الزجاج رحمه الله: قوله تعالى: ﴿رفيقاً﴾ منصوب على التمييز، ينوب عن رفقاء، وقال بعضهم لا ينوب الواحدُ عن الجماعة إلا أن يكون من أسماء الفاعلين. فلو كان "حسُنَ القوم رجُلا" لم يجز عنده.

ولا فرق بين رفيق ورَجل في هذا المعنى لأن الواحد في التمييز ينوب عن الجماعة..(٤).

---

(١) سورة النساء: ٦٩.

(٢) انظر: الإرشاد ١٩٨/٢.

(٣) انظر: روح المعاني ٧٢/٣.

(٤) انظر: معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج ٧٣/٢-٧٤.

- وعند قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾(١).

قال أبو السعود رحمه الله: وجوابُ الشرطِ محذوفٌ والمذكورُ تعليلٌ له أي ومن أعرض عن الطاعة فأعرض عنه إنما أرسلناك رسولاً مبلغًا لا حفيظاً مهيمناً تحفَظ عليهم أعمالَهم وتحاسِبُهم عليها وتعاقبهم بحسَبها...

وجمعُ الضميرِ باعتبارِ مَعْنى من كما أن الإفراد في تولى باعتبار لفظه(٢).

- وعند قوله تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٣).

قال أبو السعود رحمه الله: قالوا ولعل السرَّ في إفراد هذه الأقسامِ الثلاثةِ بالذكر ﴿بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إصلاح بَيْنَ الناس﴾ أن عملَ الخيرِ المتعدِّي إلى الناس إما لإيصال المنفعة أو لدفع المضرَّةِ والمنفعةُ إما جُسمانية كإعطاء المالِ واليه الإشارة إلى قوله تعالى إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بصدقة وإما روحانيةٌ وإليه الإشارةُ بالأمر بالمعروف وأما دفعُ الضرر فقد أشير إليه بقوله تعالى أَوْ إصلاح بَيْنَ الناس(٤).

وقال أبو جعفر النحاس رحمه الله: نجواهم في العربية على معنيين:

أحدهما: أنه يكون لما يتناجون به ويتداعون إليه.

والثاني: أن النجوى تكون الجماعة المفردين.

ونجوى مشتقة من نجوت الشيء أنجوه أي خلصته وأفردته والنجوة من الأرض المرتفع لانفراده بارتفاعه عما حوله(٥).

---

(١) سورة النساء: ٨٠.

(٢) انظر: الإرشاد ٢٠٧/٢ بتصرف.

(٣) سورة النساء: ١١٤.

(٤) انظر: الإرشاد ٢٣٢/٢ بتصرف.

(٥) انظر: إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس ٢٣٨/١ بتصرف.

وقال الثعالبي رحمه الله: الضَّميرُ في نَجْواهُمْ: عائدٌ على النَّاسِ أجمع، وجاءَتْ هـذه الآيـاتُ عامَّةَ التناولِ، وفي عمومِها يندرجُ أصحابُ النَّازلة، وهذا من الفَصاحة والإيجازِ المُضَمَّنِ الماضي والغابرِ في عبارةٍ واحدة[1].

– وعـند قـوله تعالـى: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُـرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّـرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا﴾[2].

قال أبو السعود رحمه الله: قوله تعالى: ﴿يعدهم﴾ أي مالا يكاد يُنجزُه.

﴿وَيُمَنِّـيهِمْ﴾ أي الأمانـيَّ الفارغةَ أو يفعل لهم الوعدَ والتمنيةَ على طريقة فلان يُعطي ويمـنَعُ والضميران لمَنْ والجمعُ باعتبارِ معناها كما أن الإفراد في يتخذ وخسر باعتبار لفظها[3].

– وعـند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[4].

قـال أبـو الـسعود رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات﴾ أي بعضَها أو شيئاً منها فإن كلَّ أحدٍ لا يتمكن من كلها وليس مكلَّفاً بها.

﴿من ذَكَرٍ أَوْ أنثى﴾ في موضع الحالِ من المستكنِّ في يَعْمَلْ ومن للبيان أو من الصالحات فمن للابتداء أي كائنةً من ذكر.. الخ.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حالٌ شرطَ اقترانَ العملِ بها في استدعاء الثوابِ المذكورِ تنبيهاً على أنه لا اعتدادَ به دونه.

﴿فَأُولَـئِكَ﴾ إشـارةٌ إلـى مَنْ بعنوان اتصافه بالإيمان والعملِ الصالحِ والجمعُ باعتـبار معناها كما أنَّ الإفرادَ فيما سبقَ باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعدِ لما مرَّ غيرَ مرَّةٍ من الإشعار بعلوِّ رُتبةِ المُشارِ إليه وبُعد منزلته في الشَّرف[5].

---

(١) انظر: الجواهر الحسان للثعالبي ٢/٣٠٠.

(٢) سورة النساء: ١١٩-١٢٠.

(٣) انظر: الإرشاد ٢/٢٣٤.

(٤) سورة النساء: ١٢٤.

(٥) انظر: الإرشاد ٢/٢٣٦.

- وعند قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(١).

قال أبو السعود رحمه الله: قوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ الله﴾ توحيد الضمير المجرور لاتحاد المرجع بالذات أو لكونهما في حكم الواحد أو أريد يهدي بما ذُكر وتقديم الجار والمجرور للاهتمام وإظهارُ الجلالة لإظهار كمال الاعتناء بأمر الهداية ومحل الجملة الرفع على أنها صفةٌ ثانية لكتاب أو النصبُ على الحالية منه لتخصصه بالصفة.

قوله: ﴿مَنِ اتبع رِضْوَانَه﴾ أي رضاه بالإيمان به ومن موصوله.

قوله: ﴿وَيُخْرِجُهُمْ﴾ الضمير لمن والجمع باعتبارِ المَعْنى كَما أنَّ الإفراد في اتبع اعتبار اللفظ منَ ﴿الظلمات﴾ أي ظلمات فنون الكفر والظلال ﴿إِلَى النور﴾ إلى الإيمان ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بتيسيره أو بإرادته ﴿وَيَهْدِيهِمْ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو أقرب الطرق إلى الله تعالى ومؤدي إليه لا محالة وهذه الهداية عينُ الهداية إلى سبل السلام وإنما عُطفت عليها تنزيلاً للتغاير الوَصْفيِّ منزلةَ التغايرِ الذاتيِّ كما في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾(٢)(٣).

- وعند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(٤).

قال أبو السعود رحمه الله: قوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ إشارةٌ إلى مَنْ والجمع باعتبار معناها كما أنَّ الإفرادَ فيما سبقَ باعتبار لفظها ﴿هُمُ الكافرون﴾ لاستهانتهم به وهم إما ضمير الفصل أو مبتدأ وما بعده خبرُه والجملةُ خبرُ لأولئك وقد مر تفصيله في مطلعِ سورةِ البقرةِ والجملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها أبلغَ تقريرٍ وتحذيرٌ عن الإخلال به أشدَّ تحذير حيث علّق فيه الحكمَ بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى(٥).

---

(١) سورة المائدة: ١٦.

(٢) سورة هود: ٥٨.

(٣) انظر: الإرشاد ٣/١٨-١٩ بتصرف.

(٤) سورة المائدة: ٤٤.

(٥) انظر: الإرشاد ٣/١٨.

– وعند قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

قال أبو السعود رحمه الله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ المرسلين﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوقٌ لبيانِ وظائفِ منْصبِ الرسالةِ على الإطلاق وتحقيقِ ما في عُهدة الرسلِ عليهم السلام وإظهارُ أن ما يقترحه الكفرةُ عليه × ليس مما يتعلقُ بالرسالة أصلاً وصيغةُ المضارع لبيانِ أن ذلك أمرٌ مستمرٌّ جرتْ عليه العادةُ الإلهية.

وقوله تعالى ﴿إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ حالات مقدّرتان من المُرْسلين أي ما نرسِلُهم إلا مقدَّراً تبشيرُهم وإنذارُهم ففيهما معنى العلة الغائبة قطعاً أي ليبشروا قومَهم بالثواب على الطاعة وينذروهم بالعذاب على المعصية أي ليُخبروهم بالخبر السار والخبرِ الضارّ دنيويا كان أو أخرويا من غير أن يكون لهم دخلٌ ما في وقوع المخبَر به أصلاً وعليه يدور القصر وإلا لزم أن لا يكون بيان الشرائع والأحكام من وظائف الرسالة والفاء في قوله تعالى ﴿فمن آمن وَأَصْلَحَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ومن موصوله والفاء في قوله تعالى ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لشبَه الموصول بالشرط أي لا خوف عليهم من العذاب الذي أُنذروه دنيوياً كان أو أخروياً ولا هم يحزنون بفوات ما بُشِّروا به من الثواب العاجل والآجل وتقديمُ نفْيِ الخوفِ على نفْيِ الحُزْنِ لمراعاة حقِّ المقام وجمعُ الضمائر الثلاثة الراجعة إلى مَنْ باعتبارِ معناها كما أنَّ إفرادَ الضميرَيْن السابقين باعتبار لفظها أي لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والمرادُ بيانُ دوام انتفاءِ دوامهما كما يُوهمه كونُ الخبرِ في الجملة الثانية مضارعا(٢).

– وعند قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة الأنعام: ٤٨.

(٢) انظر: الإرشاد ٣/١٣٥.

(٣) سورة الأعراف: ١٧٨.

قال أبو السعود رحمه الله: قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المهتدى﴾ لما أُمر النبيّ صلَّى الله عليه وسلم بأن يقُصَّ قصصَ المنسلخِ على هؤلاء الضالين الذين مثَلُهم كمثله ليتفكروا فيه ويتركُوا ما هم عليه من الإخلاد إلى ى الضلالة ويهتدوا إلى الحق عقب ذلك بتحقيق أن الهدايةَ والضلالةَ من جهةِ الله عزَّ وجل وإنما العِظةُ والتذكيرُ من قبيل الوسائطِ العادية في حصول الاهتداءِ من غير تأثير لها فيه سوى كونها دواعيَ إلى صرف العبدِ اختياره نحو تحصيله حسبما نيط به خلقُ الله تعالى إياه كسائر أفعال العباد فالمرادُ بهذه الهدايةِ ما يوجب الاهتداءَ قطعاً لكن لا لأن حقيقتَها الدلالة الموصلة إلى الغية البتة بل لأنها الفردُ الكاملُ من حقيقه الهدايةِ التي هي الدلالةُ إلى ما يوصل إلى البغتة أي ما منْ شأنه الإيصالُ إليها كما سبق تحقيقُه في تفسيرِ قوله تعالى هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ وليس المرادُ مجردَ الإخبار باهتداء من هداه الله تعالى حتى يُتوهّم عدمُ الإفادةِ بحسب الظاهر لظهور استلزامه هدايتَه تعالى للاهتداء ويُحمل النظمُ الكريمُ على تعظيم شأن الاهتداءِ والتنبيه على أنه في نفسه كمالٌ جسيمٌ ونفعٌ عظيمٌ لو لم يحصل له غير لكفاه بل هو قصرُ الاهتداء على من هداه الله تعالى حسبما يقضي به تعريفُ الخبرِ فالمعنى من يهدِه الله أي يخلقْ فيه الاهتداء على الوجه المذكور فهو المهتدي لا غيرُ كائناً من كان.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ بأن لم يخلُقْ فيه الاهتداءَ بل خلق فيه الضلال لا لصرف اختياره نحوَها.

وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالضلالة على الوجه المذكور.

وقوله: ﴿هُمُ الخاسرون﴾ أي الكاملونَ في الخُسران لا غير وإفرادُ المهتدي نظراً إلى لفظ مَنْ وجمع الخاسرين نظراً إلى معناها للإيذان باتحاد منهاجِ الهُدى وتفرقِ طرقِ الضلال[1].

وكذا قال الألوسي رحمه الله: وإفراد المهتدي رعاية للفظ «من»، وجمع الخاسرين رعاية لمعناها للإيذان بأن الحق واحد وطرق الضلال متشعبة، وفي الآية تصريح بأن الهدى والضلال من الله تعالى[1].

---

(١) انظر: الإرشاد ٣/٢٩٤.

– وعند قوله تعالى: ﴿مَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(٢).

قال أبو السعود رحمه الله: ... وتوحيد الضمير في حيز النفي نظراً إلى لفظ "مَن" وجمعه في حيز الإثبات نظراً إلى معناها للتنصيص على شمول النفي والإثبات للكل(٣).

وهنا أن الإمام أبا السعود أرشد إلى سر التنوع بين الضمائر إفراداً وجمعاً في الآية الكريمة، وهو التعلق بـ "مَنْ" فالضمير في حيز النفي ﴿فَلا هَادِيَ لَهُ﴾ مفرداً مراعاة للفظ "مَنْ" المفرد، والضمير في حيز الإثبات ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ جمعاً مراعاة لمعنى "مَنْ" وما تفيده من العموم والشمول والكثرة.

وأرى أن ما ذكره الإمام محل مناقشة، فـ "مَنْ" من الموصولات العامة أي: أنها موضوعة للمفرد وللمثنى، وللجمع مذكراً أو مؤنثاً بمعنى: أنها قد تستعمل في المفرد المذكر وحينئذ يكون لفظها ومعناها للإفراد والتذكير.

وهذا مخالف للقاعدة التي ذكرناها لأنه في هذه قد اختلف لفظ "مَنْ" مع معناها وهذا لا يصح.

ولنا أن نعلل لإفراد الضمير في قوله: ﴿فَلا هَادِيَ لَهُ﴾ بأن هذا الضمير وإن كان في اللفظ مفرداً لكن المراد به الجنس الشامل لكل من يضله الله، وبهذا يتفق هذا الضمير من حيث المعنى مع ضمير الجمع في قوله: ﴿ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ فالضمير هنا جمع في اللفظ والمعنى، والضمير السابق في قوله: "فَلا هَادِيَ لَهُ" مفرد في اللفظ جمع في المعنى، وبهذا يكون المراد من "مَنْ" سواء اعتبرت موصولة أو شرطية الجمع والعموم في اللفظ والمعنى، ويكون التعبير بالجمع في ضمير الجمع بعد التعبير بالمفرد لبيان أن المقصود بهذا الضمير المفرد العموم والجمع من بيان البيان بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال.

---

(١) انظر: روح المعاني ٥/١١٠.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٦.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٣/٣٠٠.

- وعند قوله تعالى: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١).

قال أبو السعود رحمه الله: قوله تعالى: ﴿الأَعْرَابُ﴾ هي صيغةُ جمعٍ وليست بجمع للعرب قاله سيبويه لئلا يلزمَ كونُ الجمع أخصَّ من الواحد فإن العربَ هو هذا الجيلُ الخاصُّ سواء سكن البواديَ أم القرى وأما الأعرابُ فلا يطلق إلا على من يسكن البواديَ ولهذا نسب إلى الأعراب على لفظه فقيل أعرابيٌّ وقال أهلُ اللغة رجلٌ عربيٌّ وجمعُه العَرَبُ كما يقال مَجوسيٌّ ويهوديٌّ ثم يحذف ياء النسب في الجمع فيقال المجوس واليهود ورجلٌ أعرابي ويجمع على الأعراب والأعاريب أي أصحاب البدو... وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده كما في قوله تعالى وَكَانَ الإنسان كَفُورًا إذ ليس كلُّهم كما ذُكر على ما ستحيط به خُبرًا(٢).

- وعند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٣).

قال أبو السعود رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ﴾ أي من جنسهم على الإطلاق.

قوله: ﴿قُرُبَاتٍ﴾ أي ذرائعَ إليها وللإيذان بما بينهما من كمال الاختصاصِ جُعل كأنه نفسُ القرُبات والجمعُ باعتبار أنواعِ القرُبات أو أفرادها وهي مفعول ثان ليتخذ(٤).

وكذا قال الألوسي رحمه الله: وَيَتَّخِذُ على وجه الاصطفاء والاختيار ما يُنْفِقُ في سبيل الله تعالى قُرُبات جمع قربة بمعنى التقرب وهو اختيار الجمهور، والجمع باعتبار الأنواع والأفراد، وقوله سبحانه: عِنْدَ اللَّهِ صفة قُرُبات أو ظرف ليتخذ.

---

(١) سورة التوبة: ٩٧.

(٢) انظر: الإرشاد ٤/٩٥، وروح المعاني للألوسي ٦/٦.

(٣) سورة التوبة: ٩٩.

(٤) انظر: الإرشاد ٤/٩٦.

ثـم ذكـر رأي أبـو الفـداء: وجوّز أبو البقاء كونه ظرفا لقربات على معنى مقربات عند الله تعالى[١].

– وعـند قـوله تعالـى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[٢].

قـال أبو السعود رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ أي النفوسُ المدلولُ عليها بكـل نفـس والعدولُ إلى صيغة الجمع مع تحقق العمومِ في صورة الإفرادِ أيضاً لإفادة تهـويلِ الخطـبِ بكون الإسرارِ بطريق المعيةِ والاجتماع وإنما لم يُراعَ ذلك فيما سبق لتحقـيق ما يتوخى من فرض كونِ جميعَ ما في الأرض لكل واحدةٍ من النفوس وإيثارُ صـيغة الجمـع المذكـرِ لحمل لفظ النفسِ على الشخص أو لتغليب ذكورِ مدلوله على إناثه[٣].

وكـذا قال الألوسي رحمه الله: والعدول إلى صيغة الجمع لإفادة تهويل الخطب بكون الأسرار بطريق المعية والاجتماع، وإنما لم يراع ذلك فيما سبق لتحقيق ما يتوخى مـن فرض كون جمع ما في الأرض لكل واحد من النفوس، وإيثار صيغة جمع المذكر لحمل لفظ النفس على الشخص أو لتغليب ذكور مدلوله على إنائه[٤].

– وعند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء﴾[٥].

قـال أبو السعود رحمه الله: والجمعُ إما باعتبار أفراد الكفَرة كأنه قيل وما كان لأحد منهم من وليَ أو باعتبار تعدّد ما كانوا يدعون من دونِ الله تعالَى فيكون ذلك بياناً لحال آلهتهم من سقوطها عن رتبة الولاية[٦].

---

(١) انظر: روح المعاني للألوسي ٧/٦ بتصرف.
(٢) سورة يونس: ٥٤.
(٣) انظر: الإرشاد ١٥٤/٤.
(٤) انظر: روح المعاني ١٣٠/٦.
(٥) سورة هود: ٢٠.
(٦) انظر: الإرشاد ١٩٧/٤.

- وعند قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

قال أبو السعود رحمه الله: قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صالحا﴾ أي عملاً صالحاً أيَّ عملٍ كان وهذا شروعٌ في تحريض كافةِ المؤمنين على كل عملٍ صالح غِبَّ ترغيبِ طائفةٍ منهم في الثبات على ما هم عليه من عمل صالحٍ مخصوصٍ دفعاً لتوهم اختصاصِ الأجر الموفورِ بهم وبعملهم المذكور.

وقولُه تعالى: ﴿من ذَكَرٍ أَوْ أنثى﴾ مبالغةٌ في بيان شموله للكل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قيّده به إذ لا اعتدادَ بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب أو تخفيفِ العذاب لقوله تعالى وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً وإيثارُ إيراده بالجملة الاسميةِ الحالية على نظمه في سلك الصلةِ لإفادة وجوبِ دوامه ومقارنته للعمل الصالح.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا يعيش عيشا طيبا أما إن كان موسراً فظاهرٌ وأما إن كان معسراً فيطيب عيشُه بالقناعة والرضى بالقسمة وتوقعِ الأجرِ العظيم كالصائم يطيب نهارُه بملاحظة نعيمِ ليله بخلاف الفاجر فإنه إن كان معسراً فظاهرٌ وإن كان موسراً فلا يدعه الحرصُ وخوفُ الفوات أن يتهنأ بعيشه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ حسبما نفعل بالصابرين فليسَ فيه شائبةُ تكرارٍ والجمعُ في الضمائر العائدةِ إلى الموصول لمراعاة جانبِ المعنى كما أن الإفراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ وإيثار ذلك على العكس لِما أن وقوعَ الجزاءِ بطريق الاجتماعِ المناسبِ للجمعية ووقوعَ مَا في حيزِ الصلةِ وما يترتب عليه بطريق الافتراقِ والتعاقُب الملائمِ للإفراد وإذ قد انتهى الأمرُ إلى أن مدار الجزاء المذكور هو صلاحُ العمل وحسنُه رُتّب عليه بالفاء الإرشاد إلى ما به يحسُن العمل الصالح ويخلُص عن شوب الفاسد[2].

---

(١) سورة النحل: ٩٧.

(٢) انظر: الإرشاد ١٣٩/٥.

– وعند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾[1].

قال أبو السعود رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ﴾ أي يخلق فيه الضلال بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ﴾ أوثر ضميرُ الجماعة اعتباراً لمعنى مَنْ غِبَّ ما أوثر في مقابله الإفرادُ نظراً إلى لفظها تلويحاً بوَحدة طريقِ الحقِّ وقلةِ سالكيه وتعددِ سبلِ الضلال وكثرةِ الضلال ﴿أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ﴾ من دونِ الله تعالَى أي أنصاراً يهدونهم إلى طريقِ الحقِّ أو إلى طريق يوصلهم إلى مطالبهم الدنيويةِ والأخروية أو إلى طريق النجاة من العذاب الذي يستدعيه ضلالُهم على معنى أن تجدَ لأحد منهم وليًّا على ما تقتضيه قضيةُ مقابلة بالجمع من انقسام الآحادِ إلى الآحاد[2].

– وعند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾[3].

قال أبو السعود رحمه الله: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطيةً كثيرة جمع كِنان وهو تعليلٌ لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوعٌ على قلوبهم ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَنْ يَهْتَدُواْ إِذاً أَبَداً﴾ وجمعُ الضميرِ الراجع إلى الموصول في هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه كما أن إفراده في المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار لفظه[4].

وقال البيضاوي رحمه الله:... ﴿يَفْقَهُوهُ﴾ وتذكير الضمير وإفراده للمعنى[5].

---

(١) سورة الإسراء: ٩٧.

(٢) انظر: الإرشاد ١٩٦/٥.

(٣) سورة الكهف: ٥٧.

(٤) انظر: الإرشاد ٢٣٠/٥.

(٥) انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي ٢٨٥/٣.

الخاتمة والتوصيات:

بعد هذه الرحلة العلمية الماتعة التي قضيتها مع الإمام أبو السعود في رحاب تفسيره العظيم "إرشاد العقل السليم" أثبت فيما يلي أبرز ما توصلت إليه من نتائج ممزوجة ببعض التوصيات:

١- إن تفسير الإمام أبو السعود تفسير عظيم مشحون بألوان النكات والتطبيقات البلاغية على آي التنزيل مما يجعل هذا الحشد الضخم منها يصبغ التفسير بلون مميز يعرف به أكثر مما يعرف بغيره.

٢- إن الإمام أبو السعود رحمه الله تعالى كان مولعاً بالجانب البلاغي للقرآن الكريم، حظاه الله بعمق في النظرة البيانية البلاغية في القرآن مما يجعله من المبرزين في هذا الجانب.

٣- اهتمام الإمام أبو السعود بالإفراد والجمع بحيث لا يكاد القارئ يتصفح ورقتين متتاليتين تخلوان من لطيفة في الإفراد والجمع تهتز لها النفوس طرباً.

٤- إن ما أولاه الإمام أبو السعود في تفسيره من عناية بالإفراد والجمع تدل على مقدار عمق فهمه وغزارة فكره وعلمه.

٥- مع أن تفسير الإمام أبو السعود مليء بالكنوز الثمينة والجواهر النفيسة إلا أنها بعيدة الغور، محجوبة بأستار من الفزلكات اللغوية جعلت منه تفسيراً مقصوراً على الخاصة لذا أُوصي إخواني الباحثين بالعكوف على هذا التفسير شرحاً وتحليلاً وتحقيقاً حتى يتسنى لكل طالب علم الاستفادة منه.

وفي ختام هذا البحث المتواضع أقول: هذا ما أمكنني الله من كتابته وتسطيره فما وجد فيه من نقص وتقصير فمن نفسي ومن الشيطان، وما كان فيه من خير وإحسان فمن الله المنان، فله الحمد أولاً وأخراً، وهو الرحيم الودود، وصلى الله على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه والصالحين.

فهرس المراجع:

١. أبجـديات البحث في العلوم الشرعية – أ.د. فريد الأنصاري – دار الكلمة للنشر والتوزيع – المنصورة – مصر – ط١ – ٢٠٠٢م.

٢. الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي – تحقيق: فواز أحمد زمرلي – دار الكتاب العربي ــ بيروت – ٢٠٠٧م.

٣. إرشاد العقل السليم– لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي– بيروت.

٤. أساس البلاغة للزمخشري – تحقيق: محمد باسل عيون السود – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط ١– ١٩٩٨م.

٥. أسد الغابة– لابن الأثير، ت: معوض؛ وعبد الموجود، ط الكتب العلمية، الأولى ١٩٩٤م.

٦. الإصابة– لابن حجر، ت: معوض وعبد الموجود، ط دار الكتب العلمية– بيروت، ١٤١٥هـ.

٧. الأعلام لخير الدين الزركلي – دار العلم للملايين – بيروت – ط ١٠– ١٩٩٢م.

٨. الأعلام– للزركلي، دار العالم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢م.

٩. أنوار التنزيل– للبيضاوي، ت: المرعشلي– ط دار إحياء التراث– بيروت، ١٤١٨هـ.

١٠. البدر الطالع– للشوكاني، دار المعرفة – بيروت.

١١. تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري– دار الكتب العلمية – بيروت – ط١– ١٩٩٩م.

١٢. تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير – دار المعرفة – بيروت – ١٩٨٢م.

١٣. التفسير والمفسرون للذهبي ــ دار إحياء التراث العربي – بيروت ط ٢ – ١٩٧٦م.

١٤. الجواهر الحسان– للثعالبي، ت: معوض وعبد الموجود، ط دار إحياء التراث– بيروت، الأولى ١٤١٨هـ

١٥. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي – تحقيق: على عبد الباري عطية – دار الكتب العلمية ــ بيروت – ١٤١٥ هـ.

١٦. شذرات الذهب، ت: الأرناؤوط، دار ابن كثير– دمشق وبيروت، ١٩٨٦م

١٧. الشقائق النعمانية، دار الكتاب العربي– بيروت.

١٨. طبقات المفسرين، ت: سليمان الخزي، ط العلوم والحكم– السعودية، ١٩٩٧م.

١٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني – تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ــ محب الدين الخطيب – دار المعرفة ــ بيروت – ١٣٧٠هـ.

٢٠. القاموس المحيط للفيروزآبادي – تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة– مؤسسة الرسالة– بيروت – ط ٢ – ١٩٨٧م.

٢١. الكواكب السائر – لنجم الدين الغزي، ت: خليل المنصور، دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان، ١٩٩٧م.
٢٢. لسان العرب لابن منظور – دار صادر – بيروت – ط ١.
٢٣. لسان الميزان– لابن حجر، دار المعارف النظامية– مؤسسة الأعلمي– بيروت– لبنان، ١٩٧١م.
٢٤. معاني القرآن– للنحاس، دار الكتب العلمية– بيروت، الأولى ١٤٠٩هـ.
٢٥. معجم المؤلفين– عمر رضا كحالة – دار إحياء التراث العربي– بيروت.
٢٦. المعجم الوجيز – نشر مجمع اللغة العربية – ١٩٩٧م.
٢٧. المنطق ومناهج البحث– أ. د. محمد عبد الله الشرقاوي، دار النصر للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.